

البَابُ الْخَامِسُ

أحوال العالم.

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية.

الفتوحات.

إِفْطِيحُ الْإِوَّلِ

أحوال العالم.

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية.

المبحث الأول

نظرة إلى أحوال العالم قبل الفتح الإسلامي

كان البشر وقت الفتوح الإسلامية منتشرين في العالم، وخاصة القارات الثلاث: آسيا وأوروبا وأفريقيا، وهم من أجناس متنوعة، فالعرب في شبه جزيرة العرب والعراق والشام، والفرس في بلاد إيران، والتتار والترك في بلاد ما وراء النهر وأواسط آسيا، والهنود في شبه جزيرة الهند، والجنس الأصفر في الصين واليابان وجنوب شرق آسيا، والروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقية، والانجلوسكسون في إنجلترا، والفرنح في فرنسا وهولندا وألمانيا، والقوط في أسبانيا وإيطاليا، والسودان والحبشة في بلادهم المعروفة اليوم في أفريقية، وكانت القوى الكبرى المتحكمة في العالم آنذاك تتمثل في الفرس والروم، حيث سيطرت القوتان على مساحات شاسعة من الأرض، وحكما شعوباً عديدة امتد نفوذهما إليها، ولم يكن الفرس على دين صحيح، بل كانوا مجوساً يعبدون النيران، وكان الروم نصارى، ولكنهم لم يحافظوا على التعاليم التي جاء بها عيسى عليه السلام بل حرفوها، لذلك لم تكن القوتان الكبيرتان في العالم آنذاك قادرتين على توجيه البشرية نحو التوحيد والعدل والفضيلة والخير، وكانت بقية الشعوب في الصين واليابان والهند والتبت تدين بالبوذية، وهي ديانة وثنية ترمز لألهتها بالأصنام الكثيرة، وتقيم لها المعابد، وتؤمن بتناسخ الأرواح. أما شعوب أوروبا فكانت بربرية تعبد الأوثان وتقدس قوى الطبيعة..

وكانت تعيش في ذلك العالم أقليات يهودية مشتتة ما بين بلاد الشام والعراق والحجاز، وقد تحرفت تعاليم موسى عليه السلام، ودخلت فيها آراء كتبتها الأحرار، ونسبوها إلى الدين، فجعلوا الله - سبحانه - إلهاً قومياً خاصاً باليهود،

وافتروا الحكايات على أنبيائهم مما يشوه سمعتهم، وأحلوا التعامل مع غيرهم من الأميين بالربا والغش وحرموه بينهم، وأبوا دعوة الناس إلى دينهم، لئلا يحظوا - في زعمهم - بشرف الانتماء إلى شعب الله المختار، وتعاليم موسى ﷺ قبل أن يحرفها اليهود، لا تُقر هذه الروح العنصرية البغيضة، ولا تعترف بنسبية الأخلاق في التعامل بين الناس.

ونخلص من هذا العرض الوجيز إلى القول: إن العالم يومذاك كان بحاجة إلى رسالة دينية جديدة، تعيد للتوحيد صفاءه، وللأخلاق قيمتها، وتأخذ بيد الإنسان نحو الحق والخير والعدل، بعد أن ساد الشرك والظلم والشر آماداً طويلة، وانحرف الناس عن تعاليم الأنبياء.

وقد جعل الله تعالى مهمة حمل الرسالة الخاتمة التي بعث بها رسوله محمداً ﷺ في أعناق العرب سكان شبه جزيرة العرب، وكانوا ضعفاء مقهورين، فقواهم الله، وفقراء مملقين، فأغناهم الله، وقبائل متفرقين، فوحدهم الله وأغماراً منسيين، فعرفتهم الدنيا بعد أن حملوا رسالة الإسلام، وقدموها للأمم الأخرى، فاستجاب لهم كثيرون من أمم الأرض، وساعدوهم على نشر الدعوة حتى امتد الإسلام إلى بلاد فارس والترك والهند وأطراف الصين شرقاً، وإلى البلاد الخاضعة للروم في الشام وشمال أفريقيا، بل إلى الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا، وهكذا عمَّ نور الإسلام معظم أرجاء المعمورة، وأزاح القوتين الكبيرتين، فقضى على فارس، وأضعف الروم في القرن الأول الهجري.

وسوف نستعرض فيما يلي الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية، التي كانت تسود في بلاد فارس والروم، ثم نعرض لهذه الأحوال في شبه جزيرة العرب، وذلك لتتعرف على الظروف العامة التي ظهر فيها الإسلام، ثم نتبين مقدار ما أحدثه من تغيير في تلك الأحوال.

دولة الفرس

الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الدولة الساسانية تحكم بلاد إيران في القرن السابع الميلادي، ويكون الفرس مادة الإمبراطورية، ولكنها أخضعت الترك في بلاد ما وراء النهر، والعرب في العراق، وكانت حدودها الغربية غير مستقرة حسب قوتها، فأحياناً تغلب على أطراف بلاد الشام كما حدث سنة ٦١٤ م عندما اجتاحت بلاد الشام واستولت على بيت المقدس، ثم استولت على مصر سنة ٦١٦ م^(١).

ولم يستسلم هرقل إمبراطور الروم، بل أعاد تنظيم بلاده وإعداد جيوشه، وهزم الفرس في آسيا الصغرى سنة ٦٢٢ م، ثم استعاد منهم سوريا ومصر سنة ٦٢٥ م، ثم هزمهم هزيمة ساحقة سنة ٦٢٧ م (٦ هـ) قرب أطلال نينوى، مما أدى إلى ثورة العاصمة المدائن ضد كسرى الثاني، وعقد خليفته شيرويه الصلح مع هرقل، على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك، إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية، حتى تعاقب على عرش فارس في التسع سنوات اللاحقة أربعة عشر حاكماً، مما مزق أوصال دولة الفرس، وجعلها مسرحاً للفتن الداخلية، حتى أجهز عليها العرب المسلمون في حركة الفتح^(٢).

هذا عن الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت على بلاد فارس. وأما نظام الحكم فكان كسروياً مطلقاً، يقف على رأسه الملك، ولقبه كسرى، وصلاحياته مطلقة، وأحياناً يوصف بصفات الألوهية، فكسرى أبرويز وصف نفسه بـ «الرجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جداً بين الرجال»^(٣). مما يدل

(١) د. سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى ١: ١٢٤.

(٢) توينبي: مختصر دراسة التاريخ ١: ٢٦٤.

(٣) كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ٤٣٢.

على الغرور والتعاضم في حين وصفه المؤرخون بـ «الملك الحقود المرائي الجشع الرعديد»^(١)، وبينوا اهتمامه الكبير بجمع أكوام الذهب والفضة والجواهر، التي ملأت خزائنه عن طريق المظالم، التي استغل بها بؤس رعيته^(٢). وكان يلجأ إلى المنجمين والكهان والسحرة لاستشارتهم في اتخاذ قراراته المهمة^(٣).

أما الحياة الاقتصادية، فقد احتكر الأقوياء الثروة ومصادرها، وانهمكوا في مباحج الحياة وملذاتها، وزادوا من ثرائهم بالربا الفاحش والمكوس والضرائب الثقيلة التي فرضوها على الضعفاء من الفلاحين والعامه، فزادوها فقراً وتعاسة، وحرموا على العامة أن يشتغل الواحد منهم بغير الصناعة التي مارسها أبوه، وكان العامة من سكان المدن يدفعون الجزية كالفلاحين، ويشغلون بالتجارة والحرف، وهم أحسن حالا من الفلاحين، الذين كانوا تابعين للأرض، ومجبرين على السخرة، ويُجرون إلى الحروب بغير أجر ولا إرادة^(٤). وكان الجباة للضرائب لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجبايتها، وكانت الضرائب تفرض بصورة اعتباطية، وخاصة وقت الحروب.

الحالة الدينية والفكرية:

لم يعرف الفرس الدين الحق، ولم تنتشر بينهم الأديان السماوية، التي سبقت ظهور الإسلام إلا بنطاق محدود جداً، وكان أكثرهم على المجوسية، فمنذ القرن الثالث الميلادي صارت الزرادشتية ديناً للدولة، وقد تدهورت أخلاق رجال الدين الزرادشتي، فوصفوا بالارتداد والحرص والاشتغال بحطام الدنيا، وحاول كسرى الثاني تجديد الزرادشتية، وإحياء معابد النيران، ونشر تفسير جديد لكتابها (الآفستا)، وكانت عقوبة من يخرج عليها الإعدام^(٥).

(١) المرجع السابق ٤٣٧

(٢) نفسه ٤٣٧.

(٣) نفسه ٤٣٧، ٤٦٩.

(٤) كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ٣٠٦.

(٥) كريستنسن: إيران ٤٧٠ - ٤٧٣.

وتقوم العقيدة الزرادشتية على الثنوية، أي وجود إلهين في الكون، هما إله النور (اهورا مزدا)، وإله الظلام (أهريمن)، وهما يتنازعان السيطرة على الكون، ويقف البشر الأخيار مع إله الخير، والأشرار مع إله الظلام.

وتقدس الزرادشتية النار، وقد أقيمت معابد النيران في أرجاء الدولة، ويعرف رجال الدين الزرادشتيون ب (الموابذة)، وكل منهم يرأس مجموعة يسمون (الهرابذة)، وهم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية.

وهذه المعتقدات الباطلة لا تقدر أن تهب النفوس البشرية الطمأنينة والراحة النفسية، ولا تشبع تطلعها إلى عبادة الله الواحد الحق، ولا تمنحها القيم الأخلاقية الرفيعة، ولا قواعد العدل الاجتماعي.

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

كانت الحياة الاجتماعية في إيران تقوم على عمادين: النسب والملكية. فكان لفصل النبلاء عن الشعب حدود محكمة، «وكان لكل فرد مرتبته ومكانه المحدد في الجماعة، وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة ألا يطمع أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده»^(١).

وتقوم الأسرة على أساس تعدد الزوجات، وشاع بينهم الزواج بين المحارم^(٢)، وكان وضع المرأة يشبه وضع الرقيق، حيث بإمكان الزوج أن يتنازل عنها لزوج آخر دون رضاها، كما شاعت عادة التبني للأولاد^(٣). وقد انتشرت الإباحية وعم الفساد الخلقي والاجتماعي، خاصة عندما انتشرت المزدكية التي دعا إليها مزدك (ولد سنة ٤٨٧ م).

(١) نفسه ٣٠٢.

(٢) كريستنسن: إيران ٣١٠ - ٣١١.

(٣) نفسه ٣١٦ - ٣١٨.

دولة الروم (الإمبراطورية البيزنطية)

٣١٢ - ١٤٥٣ م

الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم الروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، وتتوسع فتحتل الأقطار الواقعة على حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي، وبذلك جمعت أجناساً عديدة من البربر والقبط والعرب إلى جانب الروم، ولم يكن بين هذه العناصر تجانس في الجنس واللغة والثقافة والتقاليد، وبرغم انتشار النصرانية بين هذه الشعوب، لكنها لم تحقق لها الانسجام بسبب الخلاف المذهبي، الذي أضعف ولاء رعايا الإمبراطورية في الشام ومصر لها.

وكان نظام الحكم ملكياً مطلقاً، فالنصرانية لا تنظم المجتمع والدولة، بل تكتفي بتنظيم العلاقة بين الناس وخالقهم، وشعارها (دع مالقيصر لقيصر، وما لله لله). وكانت الفكرة السائدة التي تدعمها الكنيسة النصرانية، هي أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب، فأضحى بذلك موطن تبجيل وتقديس من رعاياه في أمور السياسة والدين، وكانت الطقوس والمراسيم تجري في البلاط بمشاركة الكنيسة ورجال البلاط، فإذا طلع الإمبراطور ركعوا أمامه جميعاً^(١).

وبرغم النصرانية فإن القانون الروماني والحضارة اليونانية الوثنية كانا يسودان الحياة^(٢).

(١) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٢٦.

(٢) نفسه ٢٧.

إن الإمبراطور البيزنطي الذي عاصر ظهور الإسلام هو هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ويعُدُّ من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي، حيث سعى إلى تجديد الإمبراطورية، وإعادة تنظيم الدولة، وبناء جيوشها، وزيادة ثرائها بتنظيم الضرائب وطرق الجباية، وتمكن من إحراز النصر على الإمبراطورية الساسانية، التي كانت تتفوق عسكرياً على الروم^(١). وقد أشار القرآن الكريم إلى النصر الرومي النصراني على فارس المجوسية، وفرح المسلمون في مكة به، وكانت حملات هرقل على فارس بين سنتي ٦٢٢ - ٦٢٨ م من (سنة ١٢ بعد البعثة المحمدية إلى سنة ٥ هـ).

أما الحالة الاقتصادية، فإن الربا والاحتكار هما أساسا النظام^(٢)، وقد فرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستائين من الحكم الروماني، لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وقد أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بانحطاط هائل، نتيجة المغالاة في المكوس والضرائب، والانحطاط في التجارة وإهمال الزراعة وتناقص العمران. ويكفي لبيان كيفية إدارة الإمبراطورية للولايات الخاضعة لها أن نستشهد بقول بتلر عن إدارة مصر: «إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس، وضرائب أخرى كثيرة العدد». ويقول: «مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل». ويقول: «إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية، لتكون غنيمة للحاكمين»^(٣). وحتى الروم أنفسهم تعرضوا لثقل الضرائب، وخاصة الفلاحين الذين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن^(٤).

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية ١١٦، ١٢٤ - ١٢٧، وجوزيف نسيم يوسف: تأريخ الدولة البيزنطية ١٠٥.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٧.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ٤٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٤.

الحالة الدينية والفكرية:

برغم أن الإمبراطورية البيزنطية تدين بالنصرانية، لكن تعاليم النصرانية لم تبق كما جاء بها عيسى عليه السلام. «بل إن تعاليم الكنيسة انطوت على قدر كبير من تفكير الفلاسفة الوثنيين، واستخدمت الكنيسة وسائلهم وأسلحتهم العقلية في شرح العقيدة المسيحية»^(١).

وخلاصة القول: إن النصرانية الحقة فقدت روحانيتها ووحدانيتها، لما أدخله إليها داعيتها الكبير بولس من تعاليم وثنية نشأ عليها قبل تنصّره، ولما تنصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أدخل إليها مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، وبذلك تحرفت الديانة، وضاعت تعاليمها الأصلية، وانحدرت إلى عبادة القديسين والصور^(٢).

وقد وقع الخلاف المذهبي الذي كان محوره تفسير طبيعة المسيح ﷺ بين سكان الإمبراطورية، فقد تبنت الدولة مذهب الملكانية، الذي يرى أن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية، في حين انتشر مذهب اليعاقبة والمنفوسية في بلاد الشام ومصر، وهو يرى أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، وقد أدى هذا الاختلاف إلى شقاق عنيف بين الدولة ورعاياها، وحاول هرقل توحيد مذهب الإمبراطورية، فعقد مجمعاً دينياً انتهى إلى إقرار عدم الخوض في طبيعة المسيح والاكتفاء بالقول: إن لله إرادة واحدة^(٣). لكن المصريين قاوموه فاضطهدهم بالتعذيب والتحريق، وفشلت محاولة التوحيد الديني، وضعف ولاء اليعاقبة والمنوفستية في الشام ومصر للإمبراطورية البيزنطية.

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية ٢٧.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٢. وديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) أرنولد توينبي: تأريخ البشرية ٢: ٥٩ - ٦١.

وهذا الخلاف المذهبي يوضح مدى الانحدار الفكري والانحراف العقدي، الذي أصاب شعوب الإمبراطورية، حتى جعلوا عيسى عليه السلام وهو عبدالله ورسوله إلهاً، سبحانه الله عما يقولون.

وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتائم^(١).

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

انتقلت تقاليد المجتمع اليوناني والروماني إلى الدولة البيزنطية، فلا غرابة إذا ما شاع الفساد الأخلاقي والانحلال الاجتماعي^(٢) داخل البلاط وفي أوساط الشعب. وكان الإمبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي، في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقترّب من مستواهم المعيشي الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد^(٣).

وهكذا فإن الطبقة والإقطاع وفقدان العدالة الاجتماعية كانت تطبع المجتمع البيزنطي، كما كانت القسوة والعنف والتعصب والجهل والخرافة تطبع حياة الأفراد، وما ذلك إلا بسبب ضعف الإيمان الصادق بالله ورسله، وطغيان المظاهر الخادعة على الحياة الدينية في الإمبراطورية^(٤).

(١) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٠.

(٢) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٠.

(٣) المرجع السابق ١٤: ١٧٣ - ١٧٥.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٨٧ - ١٨٨.

تنبيه:

وبرغم مظاهر الضعف والفساد في الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في وقت ظهور الإسلام وقيام حركة الفتوح الإسلامية، فإن من الخطأ المبالغة في وصف ضعفهما، فقد تمكنتا من حشد جيوش جرارة أمام تقدم المسلمين، وكانت جيوشهما تتفوق عدداً وعدة على المسلمين، ولكن الإيمان الصادق وروح الجهاد ونصر الله للمسلمين، هو الذي أكسبهم المعارك الطويلة التي خاضوها ضد قوى منظمة وجيوش متمرسة وقلاع حصينة وأمم عريقة.

الهند و الصين و اليابان

كانت البوذية تنتشر في الصين، فكانت التماثيل الخزفية المزججة التي تمثل الخدم والحيل والجمال تدفن مع الأموات في القبور، ثم تحولت هذه العادة إلى ذبح العبيد والخيول الحيّة ودفنها مع الملوك والرؤساء، لخدمتهم في عالم ما بعد الموت^(١)، وكانت تماثيل بوذا (٥٦٣ - ٤٨٣ ق. م) تنتشر في الهند أيضاً.

وتتركز البوذية حول مفاهيم تقول بخلود الحياة المستمرة في دورة لانهائية من تناسخ الأرواح، وهي حياة تفيض بالألم الذي يمكن الهروب منه بفضل التثقيف الذاتي، والوصول إلى الاستنارة التي تسمى بالإنسان لتصل به إلى مرحلة (الرفانا)، أي التوحد مع الذات الإلهية، أو باندماج الذات الإنسانية اندماجاً بهيجاً مع الكون^(٢). وكل فعل شرير عقابه في هذه الحياة بعد عودة الروح في جسد جديد، والألم يرجع إلى الشهوة، ولذلك فالحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً، ونهى بوذا عن قتل الكائنات الحية والسرقة والكذب والمسكر والدنس، ولم يهتم بالطقوس ولم يتكلم عن (الله) و(الآخرة)، بل هو لا يؤمن

(١) ولز: موجز تاريخ الإنسانية ٣: ٧٧٣.

(٢) ادوين رايشاور: اليابانيون ٦٨.

إلا بالمحسوسات، وإن كان يركز على إنكار الذات والإحسان إلى الآخرين، كما أنه لم يهاجم نظام الطبقات السائد في الهند هجوماً صريحاً وإن كان يرى المساواة بين الناس، وقد رفض الأضاحي والتعزيم والرقى والدعاء، لكنه لم يحرم عبادة الآلهة الشائعة بين الهنود. وكان يدعو إلى تحقيق السعادة عن طريق النرفانا بجمع مقوماتها السبعة، وهي: السيطرة على النفس، والبحث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركيز، وعلو النفس^(١).

وتزاحم الديانة البرهمية الديانة البوذية في بلاد الهند^(٢)، وقد حمل الكوريون الذين هاجروا إلى اليابان الديانة البوذية ونشروها هناك^(٣)، وكان اليابانيون قبل البوذية يعبدون إلهاً يدعونه كامى، ويتمثل في عبادة ظواهر من الطبيعة كالشمس أو الأجداد الأسطوريين، الذين هم ظواهر من الطبيعة حسب معتقدتهم، وتعرف ديانتهم باسم (الشتو)، أي الطريق إلى الآلهة^(٤)، وعند ظهور الإسلام كانت البوذية قد انتصرت على الشنتو^(٥).

وقد انتشرت البوذية في سيلان والملايو والتبت وتركستان وبورما وسيام وكمبوديا وكوريا إلى جانب الصين والهند واليابان^(٦).

وأما في الهند فإن البرهمية هي التي سادت فيها بعد أن زاحمت الديانة البوذية، والبرهمية تقوم على نظام الطبقات، وزعامة البراهمة، وتقديس البقرة، وتناسخ الأرواح، وقد بلغ عدد الآلهة الهندوسية ثلاثين مليوناً تزدهم بها مقبرة العظماء في الهند^(٧).

(١) ديورانت قصة الحضارة ٣: ٦٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥.

(٢) ولز: موجز تاريخ الإنسانية ٣: ٧٧٩.

(٣) تويبي: تاريخ البشرية ٢: ٧٦ - ٧٧.

(٤) ادوين رايشاور: اليابانيون ٦١.

(٥) المرجع السابق ٦٣.

(٦) ديورانت: قصة الحضارة ٣: ٢٠٠، ٢٠٧.

(٧) المرجع السابق.

وقد صورت هذه الآلهة بصور لا تراعى فيها حدود الأخلاق، واحتفظت خلال القرون بعبادات وحشية، مثل التضحية بأفراد من الإنسان، وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها.. وصورت البرهمية الحياة على أنها شر لا مفر منه، وعملت على تثبيط الهمة عند أتباعها، وإشاعة الكآبة في نفوسهم، واستحالت الظواهر الدنيوية على يديها أوهاماً، فمحت بذلك الفوارق بين الحرية والعبودية، بين الخير والشر، بين الإفساد والإصلاح^(١).

ومن هذا العرض السريع الشامل يتبين أن البشرية جمعاء كانت منحرفة عن توحيد الله تعالى، وجاهلة بكيفية عبادته، وأن مجيء الإسلام كان رحمة عظيمة لهذا العالم، حيث صحّح الإسلام الاعتقادات الباطلة بالتعريف الواضح بالخالق ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة جوانب العقيدة الأخرى مفصلة، والكشف عن مراده من العباد ببيان أحكام الحلال والحرام، وتفصيل الآداب والأخلاق، وبذلك صار بوسع الإنسان الاهتداء إلى الله الواحد القهار، وعبادته وفق ما بينه القرآن والسنة، وتطبيق منهجه الشامل في الحياة الإنسانية.

المبحث الثاني

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية

إن الخطاب الإسلامي موجه للناس كافة بشتى بقاعهم، ومختلف أزمانهم، وبكل أجناسهم وقومياتهم وألوانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣)، وهذا العموم في الخطاب

(١) المرجع السابق ٣: ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) سبأ: ٢٨.

لل بشرية اقتضى أن يقوم الرسول ﷺ وأتباعه بدعوة الآخرين إلى الدخول في الإسلام ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(١) . وقد حفلت العصور الإسلامية المتعاقبة بنشاط دعوي في أوضاع الحرب والسلام كان له أثره البالغ في تكثير أعداد المسلمين وتوسيع رقعة دار الإسلام. وكان الباعث الرئيسي على الدعوة هو طلب مرضاة الله والحصول على ثبوته، ففي الحديث النبوي: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(٢).

إن موضوع الدعوة هو الإسلام بشموله للعقيدة والشرعية والأخلاق أو بتعبير معاصر لجوانب الحياة المتنوعة فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ولكن المحور الأساسي هو التوحيد الخالص لله تعالى، وأنه الرب الخالق والمنعم الرازق، وأنه خلق البشر لتحقيق العبودية له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)، ويتم اختبار طاعتهم في هذه الدنيا، ويجازون على أعمالهم في اليوم الآخر، حيث يدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثَوْا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ لِمَنْ لَتُبْنَونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٤) ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٥) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٦).

إن الدخول في الإسلام يبدأ بـ «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، وبها يعلن الإنسان إخلاصه في العبودية لله وحده، والتزامه باتباع أحكام الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، وهكذا يدخل الإنسان مرحلة الوعي الديني..

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) البخاري: الصحيح ٥٨: ٤، ومسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب «رقم ٣٤» واللفظ له.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) التغابن: ٧.

(٥) الحديد: ٢١.

(٦) البقرة: ٣٩.

الوعي بالهدف النبيل من الوجود، والوعي بضرورة الارتقاء الروحي والمادي، والوعي بوسائل الارتقاء من الإحساس بمعاني الإيمان والتدبر والتفكير والذكر والشكر والعبادات المتنوعة من صلاة وصوم وحج، لتوثيق الصلة بالخالق، الصلاة معراج المؤمن، ومن الانتصار للحق والعدل والخير والجمال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن تمثل القيم الإسلامية في واقع حياته، ليكون مثال «الإنسان الصالح»، ومن العطاء السخي للآخرين عن طريق «العمل الصالح»، الذي يقربه إلى الله تعالى.

إن دائرة العمل الصالح واسعة، وهو يهدف إلى الارتقاء بالحياة الروحية والمادية ومساندة قيم الحق والخير والجمال في الأرض.. وهي معاني كبيرة لا يسهل تحقيقها نسبياً، وإن تحققت في جيل فليس ثمة ما يضمن تحقيقها في جيل لاحق، فالصعود والهبوط يتعاقبان في تأريخ البشر، وتجديد الدين وإحياء السنن وتوثيق عرى الإيمان يرتبط بالدعوة الإسلامية، ومدى وعي الدعاة لمضامين الإسلام وشموليته، وقدرتهم على تمثل تعاليمه، وإقناع الآخرين بها.

إن القرآن هو أول كتاب باللغة العربية حرك وعي الإنسان قبل أربعة عشر قرناً، وفتح عقله على مكانه في الكون والحياة، وعرف بالحقوق والواجبات، التي تعمق وعيه الاجتماعي ونظرته الإنسانية، وقد كان النبي ﷺ يوضح ذلك كله بأقواله وسيرته الشخصية، ونظراً لتمثله القرآن بعمق ووعي خاصين، وتأثيره الكبير في جيله خاصة، فإن الرؤية القرآنية تحولت إلى واقع إنساني معاش، تفاعل مع الوحي الإلهي - قرآناً وسنةً - وأثمر ارتقاءً عظيماً في الوعي الإنساني العام، عندما انتشر الإسلام في الزمان والمكان..

هدفت الدعوة الإسلامية إلى تخفيف معاناة الإنسان في الحياة، التي يمكن أن تتضاءل بازدياد وعيه في ظل الوحي الإلهي، في حين قد يؤدي ازدياد الوعي

إلى زيادة المعاناة عند غياب الإيمان، ففسوة الحياة تشتد عندما تفتقد المعنى، والدين هو الذي يعطيها المعنى.

وقصدت الدعوة الإسلامية إلى تحرير الإنسان من الأوهام والأساطير والخرافات والشعوذة، التي يقوم بها منتفعون يزعمون أنهم وسطاء بين الله والناس. وأحياناً اتخذ الإنسان وسطاء من الحجر والشجر والبشر يناجونهم ويسألونهم، فأعلنت الدعوة الإسلامية أنه محض الشرك، وأن لا وساطة بين الله والإنسان، وفي الحديث «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١) مما يفتح بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الإنسان، ويرسي أساساً للعدل السياسي والاجتماعي.

وتحمل الدعوة الإسلامية ميزاناً دقيقاً للحقوق والواجبات حسب الشريعة، فلا يجوز التفريط بها أو التخلي عنها، فهي نفحة إلهية للبشرية، وقد اقتضى تطبيق تلك التعاليم جهاداً وبذلاً منذ نزول الوحي، حتى استقرت دولة الإسلام، فلولاً الحركة الجهادية لما قضي على الشرك وطابع الحياة الجاهلية، ولما استقرت معاني العقيدة وقيم الإسلام الاجتماعية ومضامينه الخلقية في نفوس الملايين.

وحرصت الدعوة الإسلامية على بناء مجتمع العدل والقوة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢) مما يوضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره. والعدل الشامل يمتد إلى المسلم والذمي والكافر، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، حيث تتحدد حقوق الجميع

(١) البخاري: الصحيح ١٦٨: ٧، ومسلم: الصحيح ١٧٤٠: ٤

(٢) الحديد: ٢٥.

وفق موازين العدل، دون احتكار أو استغلال أو استئثار أو ظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١).

وتنطلق الدعوة الإسلامية من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه ولا اللون أو العرق، «الناس بنو آدم، وآدم من تراب»^(٢). ويقتضي ذلك تحقيق تكافؤ الفرص أمام الناس، والتزام العدل المطلق بينهم، وهدم النظم الطبقية إذ لا مكان للعنجهية والصلف والكبرياء والاستعلاء على الناس، «المسلمون متكافؤ دماءً، ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٣). وهذا يفسر تجاوب الأمم المختلفة مع الدعوة الإسلامية ودخولها في دين الله أفواجا. وربما من أجل ذلك كله قال الفيلسوف الألماني هيجل: «يعد المبدأ الإسلامي - أو روح التنوير في العالم الشرقي - أول مبدأ يقف في وجه البربرية»^(٤).

وتعلن الدعوة الإسلامية الشورى أساساً للنظام السياسي والاجتماعي، انطلاقاً من الآية ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، والآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وقد بين عمر رضي الله عنه أن الحكم يخص الأمة، وأن من يسلبها هذا الأمر يكون غاصباً^(٥).

وتوازن الدعوة الإسلامية بين المطالب الروحية والدينية، وتنظر إلى عمران الأرض وزينة الحياة وطيباتها نظرة متفائلة، فلا تطالب البشر بالتبتل والحرمان والنأي عن استثمار الطاقات المتنوعة لمصالحهم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٦)، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الترمذي: الجامع حديث رقم ٣٩٥٦، وأحمد: المسند ٢: ٣٦١.

(٣) أبو داود: السنن حديث رقم ٢٧٥١.

(٤) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ ٢٥٠.

(٥) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٣٥١ بإسناد صحيح.

(٦) الأعراف: ٣٢.

اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْكَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»^(١)، فالمطلوب أن يكون العمران والاستثمار في نطاق الإحساس دون الظلم، والانحراف عن الفطرة، وتسخير القوى نحو الشر والدمار والطغيان...

وهي في دعوتها إلى العمران تربي الأتباع على الإتيان، والإتيان يقابل بمصطلحات العصر (التكنولوجيا)، والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان، وفيها تتفجر الطاقات الإنسانية، وتفتح على عالم الغيب بتركيز عال من العبادة والرقابة واليقين «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

وقد أثمرت هذه الدعوة حضارة مادية رائعة في العصور الإسلامية الذهبية، شملت الفكر والعلوم والزراعة والصناعة.

وكان من مقاصد الدعوة الإسلامية حفظ النوع الإنساني واستمراره في الوجود، بتشريع الزواج، وتحصين الأسرة، وتحريم إتلاف النفس البشرية بالقتل أو الانتحار ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٣) معتبرة لتحقيق الأمان الفردي أساساً لتحقيق الأمن الجماعي.

وتفتح الدعوة الإسلامية أبواب التوبة أمام العالمين، مهما بلغت معاصيهم دون الحاجة إلى الاعتراف أمام وسيط، أو كشف مستور للآخرين: ﴿قُلْ يَعْبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ

(١) القصص: ٧٧.

(٢) البخاري: الصحيح ١: ١٨.

(٣) المائدة: ٣٢.

هُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ»^(١) وبذلك تم التأكيد على قيم إيجابية تحارب اليأس والقنوط والتردي والعبثية والإحساس بمأساوية الحياة، وتمحو الصور القاتمة المظلمة الموحية بالاكْتئاب والقلق، مثل الطَّيرة (التشاؤم) والخوف من المستقبل. سأل صحابي النبي ﷺ: «مَنَّا رجال يتطيرون؟ فأجابه: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم»^(٢).

وتكثر الصور المتفائلة، والعالم المضيئة والمعاني الإيجابية المملطة للحياة، والمجملات للاجتماع البشري بإشاعة السلام والمحبة بين الناس، والاهتمام بحسن المنظر والمظهر والنظافة وطيب الرائحة.

وأكدت الدعوة الإسلامية على التكافل والتعاون بين الناس ابتداءً بصلة الأرحام وانتهاءً بالمجتمع بالحث على السخاء والكرم والإيثار ومراعاة حقوق الجيران، حيث ينخلع الناس عن أمواهم التي يجوبونها تحت شعار «الصدقة برهان»^(٣). يعني أنها دليل قاطع على تذوق حلاوة الإيمان.

وأعلنت الدعوة الإسلامية حماية الملكية الفردية، وحثت على دوام تداول الأموال بالاستثمار، ومنعت تبديدها حتى من قبل صاحبها، فحجرت عليه إذا كان سفيهاً لا يدرك عواقب إتلاف الثروة، وحرمت الربا والاحتكار منعاً لانحصار المال بأيدي قليلة ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٤).

وكانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة الجهادية والعلمية والتجارية، وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري.

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) مسلم: الصحيح ٣٨٢: ١ حديث رقم ٥٣٧، وأبو داود: السنن ١: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) مسلم: الصحيح ١: ٢٠٣.

(٤) الحشر: ٧.

وقد اهتمت الدعوة الإسلامية بالعلم، فهو فريضة على كل مسلم، ووعدت بالأجر العظيم على طلبه، وقد وردت كلمة العلم في ٤٢٦ موضع من القرآن الكريم، وأعلت مكانة العلماء حتى اعتبرتهم ورثة الأنبياء^(١).

وأرست قيماً ثقافية تضمن استمرار التقدم العلمي. فالعلم حق للجميع، وليس حكراً لفئة معينة، مما يؤدي للارتفاع بالمستوى الثقافي لجمهور الأمة، والعلم يجب أن يقترن بالعمل والسلوك، وهو دليل توفيق الله للإنسان: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وفقه الدين يقتضي فهم الحياة والنظر إلى أحداثها وقضاياها وفق مفاهيم الإسلام، الذي انتظم جوانب الحياة المتنوعة، فلا عجب إذا ما تفتحت بصيرة المسلم على جوانب الاجتماع والاقتصاد والحس والذوق وقيم الجمال بصورة أرحب وأعمق وأشمل، كلما ازداد بصيرة في دينه.

والعلم تترتب عليه مسؤولية دينية، فالعالم يسأل عن موقفه العلمي يوم القيامة: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: ... وعن علمه ماذا عمل فيه؟»^(٢). والعالم مسؤول عن نشر العلم وعدم كتمانها: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٣).

والعلم بحر لا ساحل له، ولا يمكن للفرد الإحاطة به، لذلك لا بد من الاستمرار في طلبه دون انقطاع، وقد أثمرت هذه القيم الثقافية حركة فكرية زاهرة، حيث صار «التعلم المستمر» و«تراكم المعرفة» و«تجميع العلم»، ودراسته بصورة منظمة من أبرز خصائص الحركة الفكرية في عصور الإسلام الذهبية.

وكانت الدعوة الإسلامية تركز على مفهوم أن العقل وحرية الفكر مناط التكليف، وطالبت أتباعها بالبحث الحر عن الدليل أو البرهان، وأنكرت تقليد

(١) أبو داود: السنن ٣: ٣١٧، والترمذي: الجامع ٥: ٤٩، وابن ماجه: السنن ١: ٨١.

(٢) أبو داود: السنن ٣: ٣٢٣، وابن ماجه: السنن ١: ٩٣.

(٣) أبو داود: السنن ٣: ٣٢١، والترمذي: الجامع ٥: ٢٩.

الآخرين، فلم يظهر في الإسلام كهنوت يدعي احتكار فهم الإسلام وحق تفسير نصوصه، كما حدث في تأريخ الأديان الأخرى، بل بوسع كل مسلم أن يرجع إلى القرآن والسنة، وأن يتضلع في علومهما، ويأخذ بعد ذلك عنهما، ويناقش الآخرين في صحة الدليل وطريقة الاستدلال.

إن التأمل في المنطلقات الفكرية للدعوة الإسلامية يكشف عن مبادئ أساسية، تتمثل في تحقيق العبودية لله والكرامة والحرية والعلم والعدل والمساواة والشورى للإنسان، الذي يتجه إليه الخطاب الإسلامي في مطلق الزمان والمكان.



الفَصْلُ الثَّانِي

الفتوحات

فتوح العراق و المشرق

في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كانت قبيلتا شيان وسدوس - من بني بكر بن وائل - تسكنان في القسم الجنوبي من العراق، وكان المثنى بن حارثة الشيباني يتزعم قبيلة شيان، ويغزو بها مناطق الحيرة، كما كان قطبة بن قتادة السدوسي يتزعم قبيلة سدوس، ويغزو بها أطراف الأبله التي كانت الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي، ولم تكن هذه الحركات مرتبطة بالمدينة، بل كانت مستقلة، ولذلك أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد وعياض بن غنم إلى العراق، ليتوليا قيادة الجيوش فيه، على أن يفتح عياض دومة الجندل، التي انتقضت على أبي بكر ثم يمضي إلى الحيرة، وأيهما دخل الحيرة قبل الآخر تولى القيادة العامة في العراق^(١).

سبق خالد إلى العراق، وضم إليه جيش المثنى، وبدأ بتنظيم الحركات العسكرية، فكانت أولى الوقائع بينه وبين الفرس في منطقة الحفير قرب الخليج العربي، وقد انتصر فيها خالد على هرمز القائد الفارسي، وتسمى المعركة بذات السلاسل، لأن الفرس اقترنوا بالسلاسل، كما تسمى غزوة كاظمة باسم القرية التي دارت قربها^(٢).

وقد تملك الفرس في هذه المرحلة أردشير، فحشد جيشاً بقيادة قارن، فالتقى به خالد في المذار، وألحق به الهزيمة، وقتل من الفرس عدداً كبيراً^(٣).

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣٤٧ عن سيف بن عمر التميمي، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٤٨ - ٣٤٩ عن سيف.

(٣) الطبري: تاريخ ٣: ٣٥١ عن سيف.

وحاول الفرس بعد موقعة المذار الاستفادة من القبائل العربية، وخاصة بكر بن وائل، فاحتشدوا في الوجة، وانضم إليهم الاندزرغز القائد الذي أرسله الملك أردشير، وتمكن خالد من هزيمتهم، فذهبت فلولهم إلى أُلَيْس^(١)، فاجتمعت العرب بقيادة مالك بن قيس والفرس بقيادة بهمن جاذويه، لكن بهمن ترك جبهة القتال إلى العاصمة بسبب مرض أردشير حيث مات فيه، وترك جابان على الفرس، وتمكن خالد في أُلَيْس من تشتيت العرب والفرس، وفر جابان وقتل مالك بن قيس^(٢).

ثم سارع خالد إلى أمغيشيا فهدمها وخرّبها^(٣)، وكان الفرس منشغلين بالاضطراب في البلاط عقب موت أردشير، حيث تعاقب على العرش بعده عدد من الأمراء والأميرات. وقد استفاد خالد من هذه الظروف فقصد الحيرة عاصمة العراق العربي من أمغيشيا بالسفن، وقد سد آذابة. حاكم الحيرة الفارسي قناطر الفرات، ليمنع سير السفن، لكن خالد أعاد فتح السداد بالقوة وحاصر الحيرة، فتحصن سكانها العرب وقاوموا، وفر آذابة، وبعد حصار عنيف صالح خالد سكان الحيرة على الجزية، واتخذ خالد الحيرة معسكراً لجيشه، وأرسل حملات عدة إلى أطراف الحيرة لإقرار الأمن فيها، وقد صالحه الدهاقين في المنطقة^(٤).

وبعد فتح الحيرة قصد خالد إلى الأنبار فحاصرها، وكانت محاطة بخندق، فرمى فيه الإبل ليجتاز إليها، لكن شيرزاد الحاكم الفارسي صالحه على أن يسمح له بمغادرتها^(٥). ثم قصد خالد إلى عين التمر على أطراف بادية الشام، حيث

(١) المصدر نفسه ٣: ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٥٥ عن سيف، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٧، ٣٠٠ باختصار.

(٣) الطبري: تأريخ ٣: ٣٥٨ عن سيف.

(٤) الطبري: تأريخ ٣: ٣٥٨ - ٣٦٩ عن سيف، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٧ - ٣٠٠.

(٥) الطبري: تأريخ ٣: ٣٧٣ عن سيف.

تجمعت قبائل تغلب والنمر وأياد والفرس بقيادة مهران بن بهرام جوبين، فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وغنم الأموال^(١).

أما عياض بن غنم فبقي سنة كاملة لا يقوى على خصومه من كلب وبهراء وغسان، الذين نفروا إلى دومة الجندل بعد هزيمتهم أمام خالد بن الوليد، وكان زعيم أهل الدومة أكيدر بن عبد الملك الكندي، الذي سرعان ما تخاذل عندما علم بنجدة خالد لعياض، وقيل: إنه ترك الدومة قبل المعركة، أما القبائل العربية فقاتلت المسلمين خارج الحصن، ثم فرت فتحصنت به، ثم فتح خالد الدومة عنوة، وقتل من بداخلها من المقاتلين * وكانت الدومة مفتاح بلاد الشام والعراق، لذلك حرص المسلمون على الاستيلاء عليها^(٢).

وقد استغل العرب والفرس غياب خالد عن الحيرة فثاروا فيها، فلما رجع خالد أخضعها وباغت قبائل تغلب، وأرسل القعقاع إلى حصيد حيث تجمعات الفارين من الحيرة عرباً وفرساً فهزمهم^(٣)، ولجأوا إلى بلدة الخنافس ففتحها المسلمون، كما باغت خالد قبائل هذيل في المصيخ، وبذلك أعاد سيطرة المسلمين على سائر العراق العربي^(٤). ثم قصد خالد إلى الفراض وهو تخوم العراق والشام والجزيرة، فاجتمع عليه العرب والفرس والروم فقاتلهم وانتصر عليهم^(٥)، ثم رجع إلى الحيرة حيث جاءه أمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يأخذ نصف الجيش ويتجه إلى الشام لمساعدة المسلمين هناك ضد الروم، وبقي المثنى بالنصف الآخر في العراق^(٦).

(١) المصدر السابق ٣: ٣٧٦ عن سيف.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٧٨ عن سيف.

(٣) نفسه ٣: ٣٨٠.

(٤) نفسه ٣: ٣٨١.

(٥) نفسه ٣: ٣٨٣.

(٦) نفسه ٣: ٤٠٨، ٤١٥ - ٤١٧.

ملاحظات:

- ١ - لم يشرك الصديق رضي الله عنه أحداً من المرتدين في الفتوح، بل جردهم من السلاح، لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ثم لأنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي، فلا يعطون سكان المناطق المفتوحة المثل الصالح للجندي المسلم.
- ٢ - لم تستقر قدم الفاتحين في المناطق المفتوحة، بل كان السكان وخاصة نصارى العرب يشورون عليهم، فقد أعيد فتح الحيرة ثلاث مرات. وهذا يفسر أسباب تغير شروط الصلح مرات عديدة في مناطق السواد.
- ٣ - دارت سائر المعارك في العراق العربي^(١).

في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بعد مغادرة خالد بن الوليد العراق إلى الشام، اضطّر المثنى إلى الانسحاب من المنطقة المفتوحة إلى الصحراء لعدم تمكنه من مواجهة الفرس بقواته القليلة، ولخشيته من ثورة سكان البلاد، فترك الحيرة إلى خفّان في الصحراء.

ثم حدثت اضطرابات في البلاط الساساني، وتعاقب تسعة أمراء في أربع سنوات على العرش، وبدأ الاضطراب عندما قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز، ثم قتل شيرويه، وتولى أمراء متعاقبون، ثم تولى شهريران بن أردشير، ثم مات فتولت أخته دخت زنان بنت كسرى، ثم خلعت وتولى سابور بن شهريران ثم قتل، وتولت آزر ميدخت بنت كسرى، ثم خلعت وتولت بوران بنت كسرى، وقد أطلقت يد رستم في شؤون الدولة والجيش^(٢).

وبدأ رستم تنظيم مقاومة ضد المسلمين، وقد استمد المثنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي ومعه عشرة آلاف مقاتل،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٦٢، ٦٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤١٣ - ٤١٤، ٤٤٧.

ولما وصل العراق كان رستم قد استثار الدهاقين في السواد فثاروا بالمسلمين، كما أرسل ثلاثة جيوش: أحدها بقيادة جابان، والآخر بقيادة نرس، والثالث بقيادة الجالينوس، وتمكن أبو عبيد من هزيمة الجيوش الثلاثة قرب الحيرة وكسكر والسقاطية على التوالي، وأعاد احتلال السواد وصالح الدهاقين^(١).

وقد حفزت هزائم الفرس رستم فعلاً جيشاً كبيراً بقيادة بهمن جاذويه ذي الحاجب، يساعده الجالينوس ومعهم الفيلة وراية كسرى «درفش كايان»، والتقى الجيشان على الفرات بقس الناطف، وقد خيّر الفرس أبا عبيد أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه، فاختار العبور كي «لا يكونوا أجراً على الموت منا»، لكنه فقد خصائص عديدة، فقد كان وراءه الصحراء، وبعبوره أصبح النهر وراءه، وكان في صحراء فأصبح في أعشاب ومستنقعات، وفي بدء المعركة رجحت كفة المسلمين، لكن الفيلة أرعبت خيلهم، وخطت أبا عبيد فقتلته، وانهمز المسلمون، وقام أحدهم بقطع الجسر ليمنع الهزيمة، لكنه أخطأ وزاد خسائر المسلمين التي بلغت أربعة آلاف بين قتل وغريق، ثم أصلح الجسر وعبر المسلمون. لقد كانت الهزيمة قاسية حتى لحق بعض المسلمين بالمدينة، وبقي بعضهم بالبوادي يغلبهم الحياء^(٢).

وكان لا بد للمسلمين أن يثأروا للجسر، وبدأ الخليفة عمر رضي الله عنه يحشد الجيوش لهذا الغرض، وقد تفاقل بعض المسلمين عن الذهاب إلى جبهة العراق، ورغبوا في الالتحاق بالشام، حتى أكره عمر بجيلة بقيادة جرير بن عبد الله البجلي بالالتحاق بالعراق، وعوضهم ربع خمس ما أفاء الله عليهم. وكذلك سمح عمر رضي الله عنه للمرتدين بالاشتراك بالفتوح وأمد بهم المشى، وقد قاد المشى جيش المسلمين، والتقى بالفرس في البويب مما يلي موضع الكوفة اليوم وعليهم

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٥٠ - ٤٥٣.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤٥٤ - ٤٥٩ عن سيف.

مهران، وقد تمكن المثنى من حصر الفرس والإيقاع بهم وقتل مهران^(١).. كما قام بتعقب الفارين، وبذلك استعاد المسلمون معنوياتهم، وغلبوا من جديد على السواد. وفي هذه المعركة اشتركت بعض القبائل العربية ونصارى النمر وتغلب إلى جانب المسلمين ضد الفرس. وفي أعقاب البويب ازداد إحساس الفرس بالخطر، فاجتمعوا على يزدجرد بن شهريار بن كسرى، ونهض يزدجرد بالأمر، فجند الكفاءات وحشد القوى، وأدرك المثنى خطورة الموقف فانسحب إلى ذي قار ينتظر أمداد المدينة. وقام الفرس بتجنيد عام وتوزيع الفرق في كل أنحاء الأرض التي احتلها المسلمون، وأثاروا السكان على المسلمين، فنقضوا الصلح وثاروا.

القادسية (١٥هـ):

أما المسلمون فقد قام المثنى باستنفار القبائل العربية لقتال الفرس، وأرسل عمر رضي الله عنه الأمداد من المدينة، وأراد أن يقودها بنفسه لولا نصيحة الصحابة له بالبقاء، وتولى القيادة سعد بن أبي وقاص، ويقال: إن جيشه بلغ بمن التحق به في طريقه إلى العراق ٠٠٠ و ٢٠ مقاتل، ولما وصل إلى العراق كان المثنى قد استشهد من جراح أصابته، فضم إليه جيشه البالغ ٨٠٠٠ مقاتل، وأمر عمر رضي الله عنه أبا عبيدة بن الجراح قائد الجيش في الشام أن يمدّه بالجيش الذي سحبه خالد من العراق قبل اليرموك، فأعادهم وهم ٨٠٠٠ مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأما الفرس فبلغ عددهم في بعض الروايات ١٢٠٠٠٠ مقاتل معهم ٣٣ فيلاً، يقودهم رستم كبير القادة الفرس، وقد بدأت المفاوضات أولاً وأوضح رسل المسلمين ومنهم المغيرة بن شعبة والنعمان بن مقرن أهداف المسلمين لرستم الذي تصور أن الأمر يمكن أن يسوى بالمال، ثم دارت رحى المعركة في القادسية ثلاثة أيام هي أرماث وأغواث وعمواس، ولياليها الهدأة والسواد

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٦٠ - ٤٧٢ عن سيف وابن إسحاق.

والهزير وهي أشدها، وقد أفاد المسلمون من يوم الجسر، وتمكنوا من التخلص من الفيلة برمي عيونها، ففرت وقتل رستم وانهمز الفرس، وقتل منهم ألوف كثيرة، وخسر المسلمون ٦٠٠٠ مقاتل. واختلف في سنة الواقعة بين ١٤ و ١٥ و ١٦ هـ، ولعل الراجح أنها سنة ١٥ هـ بعد اليرموك ودمشق وفحل^(١).

المدائن:

وانطلق المسلمون بعد القادسية إلى المدائن بعد أن سقطت أمامهم بابل، ثم بهر سير وفر يزدجرد من المدائن إلى حلوان تاركاً حامية في المدائن... وقد اقتحم المسلمون نهر دجلة بجرأة نادرة، ولم يستطع الفرس صدّهم، وسلمت الحامية على الجزية، ودخل المسلمون القصر الأبيض، الذي وعدهم الرسول ﷺ بفتحه^(٢).

جلولاء (١٦ هـ):

وبدأ يزدجرد بتنظيم المقاومة من حلوان، ويتقدم نحو المدائن، لكن سعداً وجّه هاشم بن عتبة على جيش من المسلمين، فالتقى بالفرس وهزمهم وفتح حلوان، وذلك في موقعة جلولاء التي يمثل سقوطها انهيار الخطوط الأولى للمقاومة الفارسية، وفي أعقاب جلولاء اعتنق دهاقين السواد الإسلام، فأقرهم عمر رضي الله عنه على مراكزهم ورفع عنهم الجزية^(٣).

تكريت:

وبعد جلولاء أرسل سعد بن أبي وقاص جيشاً بقيادة عبدالله بن المعتم لفتح تكريت في ٥٠٠٠ مقاتل، فقاتل فيها الروم الذين كانوا يسيطرون عليها،

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٧٧ - ٥٩٠.

(٢) المصدر السابق ٤: ٦ - ٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٢٤ - ٣٤.

وسقطت بعد حصار أربعين يوماً. ثم وجه ابن المعتم ربعي بن الأفكل العنزي إلى الموصل، فصالح أهلها وأهل نينوى على الجزية^(١).

بناء الكوفة (١٧ هـ):

وقد طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سعد بن أبي وقاص أن لا يوغل في بلاد الفرس، وأن يبني مدينة للمسلمين، لأنهم استوخموا جو المدائن، ولعله خشى غلبة عادات أهلها وترفعهم على المسلمين، فبنى سعد الكوفة التي لا يفصلها عن الصحراء ماء، لتكون قاعدة الجيوش الإسلامية في العراق^(٢).

بناء البصرة (١٦ هـ أو ١٧ هـ):

وقريباً من ذلك الوقت بنى عتبة بن غزوان البصرة في منطقة الأبله، التي فتحها عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ، حيث وجهه عمر لغزو الجنوب حين وجه سعد بن أبي وقاص إلى القادسية^(٣). وقد فتح عتبة الأبله وهي مرفأً عظيم للسفن بعد قتال مع الفرس، ثم بنى البصرة، وهكذا أصبحت الكوفة والبصرة المنطلقين الرئيسيين للجيوش الإسلامية، التي فتحت المشرق. وهكذا أيضاً أصبح الاستقرار طابع الفتوحات في خلافة عمر رضي الله عنه.

لقد فُتح أكثر العراق عنوة، وانتقض مرات عديدة، حتى إن عهود الفتح وشروط الصلح تغيرت مرات عديدة، ويترتب على الفتح عنوة استملاك المسلمين للأرض، لكنهم دعوا المغلوبين للبقاء فيها على أن يدفعوا الخراج، وأفاد هذا الإجراء في عدم تحول الفاتحين إلى فلاحين، وفي ربط الفلاحين القدامى بأرضهم وولائهم لبلدهم، وساعد ذلك على ازدهار الزراعة في السواد، وما

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٣٥ - ٣٧.

(٢) المصدر السابق ٤: ٤٠ - ٤٨.

(٣) المصدر نفسه ٣: ٥٩٠ - ٥٩٥.

كان بوسع الفاتحين استثمار الأرض لنقص الخبرة، أما موقف السكان فقد قاوم العرب الفاتحين مقاومة عنيفة وخاصة نصارى بكر بن وائل، أما الفلاحون فقد ساعدوا الفاتحين الذين أبقوا الأرض بأيديهم، لكن الجند من أهل السواد قاوموا بعنف، فهم يرتبطون بالدولة، وأما الدهاقين فكانوا مع الغالب، ولما رجحت كفة المسلمين أسلموا وتولوا أعمالهم السابقة على الفتح. أما إسلام السكان فقد استجابت العامة للدين السمع والدهاقين للحفاظ على مصالحهم، وأسلمت بعض القبائل العربية مثل ربيعة، وحافظت بكر بن وائل على النصرانية، وأسلم بعض الفرس، واشتركوا في القادسية مع المسلمين، لكن عددهم كان محدوداً^(١).

ونتيجة عدم تعقب المسلمين لفلول الفرس في بلاد إيران حسب خطة عمر رضي الله عنه، تمكن بعض قادتهم كاهرمزان وملكهم يزدجرد من إعادة تنظيم الجيش، وتصوروا أن المسلمين خافوهم فلم يتعقبوهم، وبدأ التجمع الفارسي في مكانين، نهاوند ويتولى يزدجرد أمر حشد الجيوش فيها، والأحواز ويتولى الهرمزان الذي كان قد فرّ من القادسية أمر الفرس فيها.

ونتيجة قرب الأحواز من البصرة، بدأت تحرشات الفرس بالمسلمين هناك، فلنرجع قليلاً إلى الورا لتبين ظروف البصرة وعلاقتها بالأحواز. وكان عتبة قد مات فولأها عمر رضي الله عنه المغيرة بن شعبة، الذي كان قد تمكن من قهر سكان الأحواز وصالحهم على الجزية، ثم عزل عمر رضي الله عنه المغيرة على إثر شغب بعض أهل البصرة عليه واتهامهم له بالزنا، ولم تثبت التهمة، لكن عمر عيّن أبا موسى الأشعري على البصرة، وفي طريق أبي موسى إلى البصرة ثار الفرس بالأحواز ورفضوا دفع الجزية، وزاد في طمع الفرس فشل المغامرة التي قام بها العلاء ابن الحضرمي، حيث تقدم بالمسلمين من البحرين بالسفن إلى إقليم فارس،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٠٠ - ١٠٥.

متجهاً إلى اصطخر عاصمة الإقليم، فقطع عليه الفرس طريق الرجعة، وأنقذت حاميات البصرة والكوفة العلاء بن الحضرمي وعزل عن البحرين.

فتح الأحواز:

ولما اطلع أبو موسى على تحرشات الفرس وطمعهم دفع قواته إلى مدينة الأحواز، ففتحها بعد أن كانت قد فتحت منازل ونهر تيري، وقد فر الهرمزان من الأحواز إلى رامهرمز، وبدأت الحشود تتجمع من فارس حوله بتحريض من يزيد جرد، فطلب عمر رضي الله عنه من سعد بن أبي وقاص أن يوجه النعمان بن مقرن من الكوفة إلى رامهرمز^(١).

فتح رامهرمز:

كما طلب من أبي موسى الأشعري أن يوجه سهيل بن عدي من البصرة إلى رامهرمز، وقد تمكن النعمان من فتح رامهرمز قبل وصول سهيل^(٢).

فتح تستر:

وفرَّ الهرمزان إلى تستر، ولحقه النعمان وسهيل، فحاصرا تستر، ولكثرة جيوش الهرمزان وحصونه تستر لم يتمكن المسلمون من فتحها إلا بعد وصول أمداد كثيرة من البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري، ومن الكوفة بقيادة عمار بن ياسر واليها، ودار قتال عنيف خارج تستر، التي كانت عاصمة خوزستان وأكثر مدنها منعة، ثم اضطر الفرس إلى الاعتصام بحصونها، وقد دلَّ رجل من أهل تستر المسلمين على مدخل مائي إلى المدينة، فدخل منه مئتان وأربعون مقاتلاً في الليل وفتحوا أبواب المدينة، ودخلها المسلمون، فاعتصم الهرمزان بقلعته، ثم سلم على أن يحكم فيه عمر رضي الله عنه، وكفت المدينة عن المقاومة^(٣).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٧٢ - ٧٦.

(٢) المصدر السابق ٤: ٨٣.

(٣) الطبري: تاريخ ٤: ٧٧، ٨٣.

فتح السوس و جندی سابور:

ثم اتجه المسلمون إلى السوس، فحاصروها حتى نفذ قوتها وصاحتهم، وأسلم سياه الأسواري بشرط أن يلحق هو وجيشه بإشراف العطاء، وصاحت جندی سابور المسلمين، وبذلك تم خضوع إقليم فارس للمسلمين^(١).

نهاوند (٢١ هـ):

وأما يزدجرد فاستمر يحشد الجيوش في نهاوند من مختلف المقاطعات بقيادة الفيرزان، حتى قيل: إن جيشه بلغ ١٥٠,٠٠٠ مقاتل، وتغيرت وجهة نظر الخليفة عمر رضي الله عنه في منع الانسحاب في بلاد إيران بعد أن شرح له الأحنف بن قيس الموقف، وأن الفرس سيستمرون بالمقاومة مادام يزدجرد حيّاً، وهمّ عمر أن يتوجه إلى العراق لقيادة الجيش بنفسه، لولا نصيحة الصحابة له بالبقاء، فعين النعمان بن مقرن على الجيش وبعده حذيفة بن اليمان، وقيل: إن جيش المسلمين بلغ ٣٠,٠٠٠ مقاتل، وكانت نهاوند حصينة، وكان الفرس يخرجون منها فيقاتلون ثم يحتمون بحصونها، فلم يتمكن منهم المسلمون حتى استدبر جوههم بعيداً عنها، ثم قاتلوهم وهزموهم وقتل الفيرزان، واستشهد النعمان، وفتح المسلمون نهاوند، وتسمى فتح الفتوح، فلم تقم للفرس بعدها قائمة. وفي أعقابها صاحت همذان ثم الدينور ثم السيروان ثم الصيمرة ثم ماه...^(٢).

وتتمثل خطة عمر رضي الله عنه بعد نهاوند بالانسحاب السريع في بلاد إيران، كي لا يجتمع للفرس فل، لذلك عقد بنفسه سبعة ألوية، فجعل لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشير وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء درابجرد إلى سارية بن زعيم

(١) المصدر السابق ٤: ٨٩ - ٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ١١٤ - ١٣٩، ١٤٢ - ١٤٣.

الكناني، ولواء كرمان إلى سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، ولواء مكران إلى الحكم بن عمرو التغلبي.

فتح أصبهان:

وجه عمر عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى أصبهان، وبعد قتال عنيف خارج المدينة صالحت أصبهان على الجزية. وتوضح الروايات التي يسوقها أبو الشيخ الأنصاري أن بعض أصبهان فتح صلحاً وبعضها فتح عنوة، ومما فتح صلحاً مدينة جي أصبهان وشقها، ومما فتح عنوة شق التيمرة من أصبهان، ورستاق الشيخ، ورستاق بو حوار، ورستاق جرم قاشان^(١).

إعادة فتح همدان:

ثم انتقضت همدان، فأعاد فتحها صلحاً نعيم بن مقرن، واجتمعت جيوش المقاطعات الشمالية من الديلم وأهل الري وأذربيجان بقيادة اسفنديار الرازي أخي رستم قائد القادسية، فهزمهم نعيم بن مقرن في واج رود^(٢).

فتح الري:

لكنها عادت فاجتمعت في الري بقيادة ملك الري سياوخش، والري عاصمة الشمال الحصينة، وجاءتهم الأمداد من أهل ديباوند وطبرستان وقومس وجرجان، فإن سقوط الري بيد المسلمين يجعل الخطر مباشراً على هذه المناطق، وكذلك لأهمية الري الدينية، حيث فيها معابد النار الكثيرة، وقد لقي المسلمون مقاومة عنيفة انتهت بفتح الري عنوة، ومع ذلك فقد أجراه نعيم صلحاً، ولعل خطورة الوضع وعنف العدو في هذه المناطق جعله يفكر في تهدئة أهل الري.

وبسقوط الري صالحت قومس المسلمين، وكذلك فعلت ديباوند، ولم يبق من بلاد الفرس أمام المسلمين سوى جرجان وطبرستان وأذربيجان، وبذلك

(١) الطبري: تاريخ ٤: ١٣٩ - ١٤١، وأبو الشيخ: طبقات ١٨٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ١٤٦ - ١٥٠.

يصلون إلى شواطئ قزوين، وقد كاتب سويد بن مقرن ملوك هذه المقاطعات، فصالحه ملكا طبرستان وجرجان، وتقدم عتبة بن فرقد وبكر بن عبدالله في بلاد أذربيجان، ولقيا اسفنديار فهزماه وأسراه، فصالحهما على الجزية، كما دان للمسلمين شهريراز أمير الباب، وبذلك وصل المسلمون إلى أقصى بلاد الفرس، واتصلوا بديار الترك من الشمال^(١).

أما في الجنوب من بلاد إيران فقد تقدم المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس، ففتح عثمان بن أبي العاص توج بمعاونة مجاشع بن مسعود الذي كان على جيش البصرة^(٢).

فتح إقليم فارس:

ثم سار مجاشع إلى سابور وأردشير ففتحهما بعد قتال، وسار عثمان بن أبي العاص إلى اصطخر عاصمة الإقليم ذات الأهمية السياسية والدينية، ودافع عنها الهربز، ودخلها المسلمون بالقوة، ثم صالحوا الهربز على الجزية، وقد انتقضت بعد ذلك مرتين وأعيد فتحها، ويذكر البلاذري أن أبا موسى الأشعري قدم من البصرة، واشترك في فتوح إقليم فارس مع عثمان بن أبي العاص، ففتح أرجان وشيراز وسينيز صلحاً، وفتح عثمان درابجرد صلحاً، ويخالفه الطبري، فيذكر أن سارية بن زعيم فتح بسا ودرا بجرد^(٣).

فتح كرمان و مكران:

وكذلك فتح سهيل بن عدي كرمان بالقوة، كما فتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران بالقوة، وكان يزدرجرد في كرمان، ففر إلى مرو خراسان...^(٤).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ١٥٠ - ١٦٠.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ١٧٤.

(٣) المصدر السابق ٤: ١٧٥ - ١٧٩.

(٤) المصدر نفسه ٤: ١٨٠ - ١٨١.

فتح سجستان:

وتمكن عاصم بن عمرو من فتح سجستان بعد حصار عاصمتها زرنج على الجزية^(١).

فتح خراسان:

وتمكن الأحنف بن قيس من التوغل في خراسان الإقليم الشمالي الشرقي من بلاد إيران، ففتح هراة عنوة ثم صالح أهلها، وأرسل القوات إلى نيسابور وسرخس، وسار بنفسه إلى مرو، حيث يقيم يزدجرد الذي فر منها إلى مرو الروذ، ثم منها إلى بلخ، وتبعه الأحنف فسقطت بلخ وفر يزدجرد إلى سمرقند لائذاً بخاقان الترك، وجمع خاقان جيشاً من فرغانة والصغد، وجاءت أوامر عمر إلى الأحنف أن لا يتقدم في بلاد الترك، فقد اتسعت الفتوح، ولا يؤمن انتفاض الفرس في البلاد المفتوحة، مما يهدد خطوط رجعة المسلمين. وقد تقدم خاقان بجيوش الترك لحرب الأحنف، لكنه عرف أن المسلمين لن يتقدموا في بلاده فرجع عن قتالهم. أما يزدجرد فقد فقد أمهله بتراجع خاقان، وكان قد تقدم مع خاقان إلى مرو، فلما انسحب خاقان حاول أخذ خزائنه من مرو والالتحاق بخاقان، فرفض سكان المدينة ذلك، فلما أصر ثاروا به وقتلوه^(٢).

وهكذا تم فتح بلاد إيران في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقام المسلمون المسالحي في شتى أرجائها متوقعين انتفاض الفرس في هذه الديار، لقد كانت فتوح المشرق عنيقة اقتضت من المسلمين تضحيات جسيمة بسبب اختلاف الدم، فسكان إيران فرس لا تربطهم بالعرب لغة ولا جنس ولا ثقافة، وكان الشعور القومي عند الإيرانيين يذكى التأريخ الطويل والثقافة المتأصلة، كما أن القتال كان يدور

(١) المصدر نفسه.

(٢) الطبري: تأريخ: ١٦٦ - ١٧٣.

في صميم الوطن الإيراني، ويشترك رجال الدين المجوس في تأليب السكان على المقاومة، يضاف إلى ذلك بعد هذه المناطق عن مراكز الجيش في البصرة والكوفة، وطبيعة الأرض الجبلية التي تمكن السكان من المقاومة، ولذلك فقد انتقضت معظم هذه المراكز، وأعيد فتحها في خلافة عمر أو في خلافة عثمان رضي الله عنه ^(١).

في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

انتقضت بعض الولايات الإيرانية على المسلمين، فأعادوا فتحها في خلافة عثمان رضي الله عنه، ففي سنة ٣١ هـ انتقضت خراسان، فتقدم إليها عبدالله بن عامر بجيش من البصرة، وأعاد فتح مدنها مرو ونيسابور ونسا وهراة وبوشنج وباذغيس ومرو الشاهجان. ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فاجتمع عليه أهل مرو الروذ والجوزجان والطالقان والفارياب والصغانيان، ففتح هذه البلاد بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وحاول فتح بلخ فلم يتمكن، ثم عبر نهر جيحون فصالحه أهل بلاد ما وراء النهر، ثم استخلف عثمان قيس بن الهيثم بدل الأحنف، فتوغل في طخارستان وفتح مدنها، وكذلك فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان، وصالحه ملك جرجان، وثارت أذربيجان فغزاها الوليد بن عقبة وأعادها إلى الطاعة، وكذلك تم فتح أرمينية في خلافته ^(٢).

في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تأثرت فتوح المشرق في أواخر حكم عثمان بما كان من فتن واضطراب في المدينة، فحدث هدوء نسبي في هذه الجبهات الشرقية، بل إن بعض المدن نقضت صلحها مع المسلمين في أواخر خلافة عثمان مثل بلخ وهراة، ولم تمكن الفتن الداخلية في خلافة علي من متابعة الفتح في المشرق ^(٣).

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٢٢٠ - ٢٢٥.

(٢) الطبري: تأريخ ٤: ٢٤٦ - ٢٤٧، ٢٦٩ - ٢٧١، ٢٨٦ - ٢٨٧، ٢٩٣ - ٣٠٣، ٣٠٩ - ٣١٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٥.

المبحث الثاني

فتوح الشام ومصر والمغرب

• فتوح الشام في خلافة الصديق رضي الله عنه:

كان النبي ﷺ قد لفت أنظار المسلمين إلى فتح الشام منذ مؤتة سنة ٨ هـ ثم تبوك سنة ٩ هـ ثم حملة أسامة سنة ١١ هـ، التي كتب لها أن تتأخر إلى خلافة الصديق رضي الله عنه. ثم بدأ الصديق رضي الله عنه بتوجيه الحملات إلى الشام في سنة ١٣ هـ بعد أن رجع من الحج، فوجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء، ليتخذها معسكراً يستنفر الناس إليها. ثم توغل خالد في بلاد الشام وأمدّه أبو بكر بالوليد بن عقبة ثم بعكرمة بن أبي جهل، وقد تمكن القائد الرومي باهان من استدراج خالد، وهو يتظاهر بالتراجع إلى دمشق حتى طوقه وقاتله في موقعة مرج الصفر، وفر خالد بن سعيد والوليد بن عقبة، وتراجع عكرمة بالجيش، حيث انضم إلى الجيوش التي وجهها أبو بكر إلى الشام، وقد حدد أبو بكر لقادة هذه الجيوش وجهتهم، فوجه أبو عبيدة إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحيل بن حسنة إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، ولم تكن الجيوش تحت قيادة واحدة^(١).

الصدّات الأولى:

وقد اصطدمت مع الروم في بعض جهات الشام، حيث التقى يزيد بن أبي سفيان بالروم بقيادة سرجيوس وانتصر عليه في وادي عربة، كما التقى عمرو ابن العاص وشرحيل بن حسنة بأرطبون (أريطيون) في أجنادين بفلسطين، واضطراه إلى التراجع إلى القدس^(٢).

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣٨٧ - ٣٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤٠٦، ٤١٧، ٤١٨ عن ابن إسحاق، ٦٠٥. والبلاذري: فتوح البلدان ١٣٥ - ١٣٦.

ولكن المسلمين أخذوا يواجهون عقبات كبيرة تمثلت في التفوق العددي الهائل للروم، حيث حشدوا جيشاً كبيراً بقيادة تيودريك أخي هرقل، اتخذ من منطقة على اليرموك معسكراً له، لذلك اقترح عمرو بن العاص تجميع الجيوش الإسلامية في اليرموك فتم ذلك.

اليرموك (في الطبري سنة ١٣هـ):

ووجه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد مع نصف الجيش الذي كان في العراق لمساعدة المسلمين في الشام، وقد قطع خالد الصحراء بسرعة خارقة، واتصل بجيوش المسلمين في اليرموك بعد أن فتح في طريقه إليهم بصرى وبعض الواحات التي مر بها. وقد اجتمعت جيوش المسلمين تحت قيادة خالد بن الوليد ثم دارت رحى معركة هائلة، وقد استبسل المسلمون واستشهد عكرمة ابن أبي جهل، وقاوم الروم بعنف ثم هرب بعضهم، ومعظمهم هوى في وادي الواقصة، فكان قتلاهم ألفاً عديدة. وكان جيش المسلمين يضم ألفاً من الصحابة بينهم مئة بدري^(١). وقد غادر هرقل على إثر الموقعة مدينة أنطاكية، وودع سوريا الوداع الأخير، وفتحت الطريق أمام المسلمين للانسياح في بلاد الشام، وفي أعقاب اليرموك توفي أبو بكر رضي الله عنه^(٢)، وتولى الخلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: إن ذلك كان عقب حصار دمشق^(٣)، بل هناك رواية أخرى مخالفة هي أن اليرموك حدث عقب فتح دمشق، ومعنى ذلك أنها كانت في خلافة عمر رضي الله عنه.

• في خلافة عمر رضي الله عنه:

عزل خالد:

بدأ عمر خلافته بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة في الشام، وولاها أبا عبيدة عامر بن الجراح، ويرجح البعض السبب إلى موقف خالد من مالك بن

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١: ٥٢٩ (ط. المنجد).

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٣٩٤-٤٠٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٤٤.

نوية، أو إلى عداء شخصي منذ الجاهلية بين الاثنين، أو إلى كراهية عمر لمجازفة خالد بالمسلمين في المعارك، والصواب أن عمر رضي الله عنه يمتاز برغبته في الإشراف على الولاية والقادة، وكان يخطط حتى للمعارك التي تدور في جبهات العراق والشام، وتروي المصادر تفاصيل ذلك، وخالد امتاز بطبيعته التي تدعو إلى الاستقلال والتصرف الحر، فكان لا بد من عزله لتحقيق الانسجام بين الخليفة وقيادة الجيش، وكذلك ليس بعيداً أنه عزله كي لا يفتتن به الناس، فيحسبون أن النصر لا يتحقق إلا بوجوده.

فتح دمشق (في الطبري أوائل سنة ١٤ هـ):

واستشار أبو عبيدة الخليفة: هل يتجه إلى دمشق أم إلى فحل بالأردن؟ فأشار بالاتجاه إلى دمشق، فحاصرها المسلمون ستة أشهر، ثم فتح خالد الباب الشرقي عنوة، وفتح أبو عبيدة باب الجابية صلحاً، وأجرى أبو عبيدة الصلح مع دمشق. وقد استقر المسلمون داخل مدينة دمشق أكثر من ضواحيها وملحقاتها الإدارية^(١).

ثم اتجه المسلمون بقيادة شرحبيل إلى فحل، حيث التقوا بالروم هناك وهزموهم، لذلك صالحهم أهل طبرية وبيسان وأذرعات وعمان وجرش ومآب وبصرى على مثل صلح أهل دمشق، (يقاسمهم المسلمون الأموال والمنازل، وعلى جزية مقدارها دينار واحد سنوياً على كل فرد)^(٢).

حمص وحماة واللاذقية وقنسرين وحلب:

وتمكن المسلمون بعد فتح دمشق وفحل من بسط نفوذهم على سوريا والجزيرة وفلسطين والأردن، فقد اتجه أبو عبيدة إلى حمص وحاصرها، ثم فتحها صلحاً على إثر زلزال وقع فيها. وقد صالحت حماة على مثل صلح حمص.

(١) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ص ٣٩٣، برغم أن الجدول يخص توزيع العلماء وحدهم، ولكن الشريحة الاجتماعية تصلح للقياس عليها، فإن العلماء إنما يعيشون وسط الجمهور الذي يوجهونه.

(٢) الطبري: تأريخ ٣: ٤٣٤، ٤٣٧ - ٤٤٤، والبلاذري: فتوح البلدان ١٤٤ - ١٤٧.

ثم اتجه أبو عبيدة إلى اللاذقية فحاصرها، وأطال سكانها الحصار لإنقاذ أنطاكية، لكنه تمكن من فتحها بالقوة.

ثم اتجه خالد إلى قنسرين قرب حلب ففتحها عنوة، وطلب سكانها الصلح، فرفض خالد، لكن أبا عبيدة أقروهم على الصلح، ومع ذلك ثارت عندما تركها المسلمون لفتح حلب، فأعادوا فتحها وتركوا فيها حامية.

وكذلك أرسل أبو عبيدة عياض بن غنم ففتح حلب صلحاً بعد أن حاصرها^(١).

أنطاكية:

وبقيت أنطاكية التي تعد عاصمة الإمبراطورية في الشرق، وقد تخلى عنها هرقل إلى الرها، فحاصرها أبو عبيدة وفتحها صلحاً، ثم ثارت فأعاد عياض بن غنم فتحها وترك فيها حامية.

وفي الوقت الذي عمل أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعياض بن غنم على فتح سوريا والجزيرة، كان عمرو بن العاص يتقدم في أرض فلسطين، فعلى إثر موقعة أجنادين (١٣ هـ) اعتصم أرطبون بحصون بيت المقدس، فاتجه المسلمون إلى فتح مدن الساحل ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا، بعضها عنوة وبعضها صلحاً.

بيت المقدس:

ثم اتجه عمرو بن العاص إلى بيت المقدس فحاصرها طويلاً، ولما أدرك أهل القدس قوة الحصار وانقطاع الإمداد عنهم لاستيلاء المسلمين على مدن الساحل رغبوا في الصلح، واشترط سفرونيوس بطريق المدينة أن يتولى الصلح الخليفة

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٥٠-٥٦، والبلاذري: فتوح البلدان ١٥٦، ١٥٧، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٤-١٧٥.

عمر رضي الله عنه بنفسه ليكون أوكد، فقدم عمر بنفسه إلى الجابية، وكتب كتاب الصلح للقدس، وسلمت مفاتيحها إليه... أما أرطبون قائد حامية القدس فانسحب إلى مصر^(١).

وهكذا تم فتح بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه «وقد غادر البيزنطيون ولحق بهم أتباعهم من أهل البلاد... وكان عدد أفراد الجاليات العربية يتجاوز كثيراً عدد الجيش الفاتح، فعدد جيش الفتح كما تقول المصادر كان يبلغ من ٢٤,٠٠٠ إلى ٢٧,٠٠٠ محارب، ثم ازداد إلى ٤٠,٠٠٠ في نهاية عهد الخلفاء الراشدين، وإلى ٦٠,٠٠٠ أيام معاوية الأول، تضاف إليهم عائلاتهم. وهذا العدد يماثل عدد أفراد قبيلة واحدة من تلك التي استوطنت هذه المنطقة قبل الإسلام، كقبيلة غسان التي شكلت دولة في حوران في القرن الخامس الميلادي^(٢)، حيث يذكر البلاذري أن الأمير الغساني جبلة بن الأيهم ترك الشام بعد الفتح مع ٣٠,٠٠٠ من رجاله^(٣). ويلاحظ أن المؤرخين اقتضبوا أخبار فتح الشام وفصلوا فتوح العراق، ولكن هناك تفاصيل عن اليرموك وفتح دمشق والقدس، أما موقف عرب الشام من الفتح والإسلام، ففي حياة الرسول ﷺ لم يقدم إليه وفد منهم ليبياعه على الإسلام، وإن كان أهل جرباء وأذرح ودومة الجندل قد صالحوه في غزوة تبوك. وقد وقفت كثير من القبائل العربية مثل بهراء وكتب وسليم وتنوخ ولخم وجذام وغسان إلى جانب الروم، وقاتلت ضد المسلمين، كما أن بعض العرب من لخم وجذام ساندوا المسلمين فيما بعد في اليرموك لكنهم لما رأوا جد القتال فروا، لكن نصف جيش الروم كان عربياً بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني.

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٦٠٧-٦١٢.

(٢) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية ص ٥٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٦١.

وقد قاوم نصارى الشام الجيوش الإسلامية لأسباب دينية، فلما رأوا انتصار المسلمين جنحوا إلى مصالحتهم. ويرى نولدكة وتريمينكهام أن قيام القبائل المنتصرة بمقاومة الفتح الإسلامي ما كانت نابعة عن التزام ديني بقدر ما كانت المصالح تقتضي مثل هذا الموقف، فلما زالت هذه المصالح ورفض الروم دفع المبالغ المقررة لتلك القبائل التي كانت تحمي مداخل الصحراء، حتى بدأت تغير من موقفها مع المسلمين^(١).

أما الروم فقاتلوا بعنف في ميادين عديدة، وأطالوا القتال، وحسبوا حركة الفتح غزواً ينتهي بانسحاب العرب بعد إحرازهم على الغنائم، ونسوا أن العرب تغيروا، وأصبحت لهم مثل وقيم ومبادئ دونها كنوز الأرض كلها. وأنهم عندما قدموا ألاف الشهداء على أرض الشام ابتغوا نشر الرسالة والتمكين لها، وليس نهب البلاد المفتوحة، وهذا سر استمرار وجودهم هناك^(٢).

فتح مصر:

كانت دوافع فتح مصر عند المسلمين قوية، فهناك العقيدة التي يريدون التمكين لها في كل مكان، ومصر تتصل بفلسطين، فمن الطبيعي بعد فتح فلسطين أن يتجه المسلمون إلى مصر، وقد شطر المسلمون الإمبراطورية البيزنطية إلى شطرين، لا يصل بينهما سوى البحر، وذلك باستيلائهم على الشام، وفي مصر وشمال أفريقية جيوش ومسالح رومية، ولبيزنطة أسطول قوي في البحر، ولن يأمن المسلمون في الشام ومصر تحت النفوذ الرومي، ومصر غنية، وهي مصدر لتموين القسطنطينية، فإذا احتلها المسلمون ضعف نفوذ بيزنطية كثيراً، وأمن المسلمون في الشام والحجاز، حيث يسهل اتصال الروم بالحجاز عن طريق مصر.

(١) د. محمد عبد القادر خريسات: دور العرب المنتصرة في الفتوحات ص ٢، ضمن بحوث المؤتمر الدولي الرابع لتأريخ بلاد الشام - 1985 م. Trimingham. christianity among the arabs in pre.

islamic time long man London and New york , P. 56 - 1979.

(٢) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٤٤ - ٥٥.

العريش:

وقد استأذن عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في فتح مصر، واتجه بجيشه إلى العريش واحتلها دون مقاومة، ثم سار إلى الفرما، وقاومه الروم شهراً أو شهرين، ثم تمكن من احتلالها، واتجه إلى بلبس^(١). شمال شرق القاهرة فاحتلها، واصطدم بعد ذلك بأرطبون وهزمه.

حصن بابليون:

وتقدم إلى حصن بابليون، حيث تعتصم قوات الروم بقيادة ثيودورس ورتاسة المقوقس، الذي عينه الروم بطيركاً على الأسكندرية ووالياً على مصر، وعسكر المسلمون في عين شمس (هيلوبوليس)، وجاءهم مدد الخليفة بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت، فتقدموا إلى حصن بابليون وحاصروه، وطال الحصار لمناعته، وكان الروم يخرجون منه فيقاتلون ويعودون، ثم غلبهم المسلمون خارجة، وفر ثيودورس إلى الأسكندرية، واحتفى المقوقس بالحصون، وبعد حصار سبعة أشهر فاوض المسلمين على الصلح على الجزية للقبط والخيار للروم، وخلال حصار بابليون تمكن عمرو بن العاص من الاستيلاء على الفيوم وجنوب الدلتا، كما استولى على أم دنين إحدى مسالح الروم المهمة.

وبعد سقوط حصن بابليون فتح الطريق أمام المسلمين للاستيلاء على مصر السفلى، حيث لم يلقوا مقاومة عنيفة، كما اتجهوا نحو الأسكندرية في الشمال، والأسكندرية حصينة كما أن موقعها البحري يمكن الروم من إيصال الأمداد إليها بحراً، وقد لقي الجيش الإسلامي في طريقه إليها مقاومة من الروم حتى وصل إليها، ودافع الروم عنها وضربوا المسلمين بالمجانيق، وطال حصارها،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١١٨ - ١٢٠، وبتلر: فتح العرب لمصر ١٩١.

وكان الإمبراطور هرقل قد عزل المقوقس عن مصر، ونفاه على إثر مصالحته المسلمين في بابلين، ومات هرقل فرجع المقوقس إلى ولايته على مصر، فرأى الإسكندرية محاصرة، فصالح المسلمين عليها، على الجزية لمن شاء البقاء، ولا يمنع من يريد الالتحاق بالروم. وهكذا سيطر المسلمون على الإسكندرية، وبدأوا بإنشاء الفسطاط، وحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر، ثم اتجه عمرو بن العاص نحو الغرب، ففتح برقة صلحا سنة ٢١ هـ، وفتح طرابلس عنوة سنة ٢٢ هـ.

ويمكن أن نلاحظ أن موقف الروم في مصر يتميز بالمقاومة العنيفة، لأن المسلمين يسلبونهم سلطانهم، ومنهم من سالم رغبة في الاستفادة من المسلمين، كالمقوقس بعد أن نفّض يده من بيزنطة.

أما القبط فقد ساعدوا المسلمين بإصلاح الطرق وإقامة الجسور وإمدادهم بالموونة، وكان اضطهاد البيزنطيين لهم دينياً وإجهاًفهم لهم بالضرائب، وصورة الحرية الدينية التي أتاحها المسلمون لنصارى الشام تجعلهم يرحبون بالمسلمين^(١).

• في خلافة عثمان رضي الله عنه:

إعادة فتح الأسكندرية:

عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص عن مصر وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ، فثارت الإسكندرية على المسلمين، وأرسل الإمبراطور قسطنطين أسطولاً حربياً بقيادة منويل الخصي الأرمني، فاحتل الإسكندرية وتقدم في الأرض المصرية، فأعاد عثمان عمرو بن العاص على قيادة الجيش، فتمكن من طرد الروم واحتلال الإسكندرية ثانية وهدم أسوارها^(٢).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ١٠٤، وشكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٣٧ - ١٤٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٥٧ - ٢٦٣.

السودان:

وقد توجه عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة (السودان)، لكنه لم يتمكن من التوغل فيها، ثم صالحهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وتبادل معهم الهدايا. أفريقية:

وقد أرسل عبدالله بن سعد بن أبي سرح يستأذن عثمان بغزو أفريقية (تونس)، فأرسل عثمان جيشاً من المدينة فيه أعيان الصحابة، وتولى قيادته ابن أبي سرح أولاً، ثم ولي عليه الزبير بن العوام، فتمكن من إحراز النصر على جرجير^(١) ملك أفريقية، وأحرز غنائم وعاد، فلم تكن غزوته فتحاً منظماً^(٢). وكان البربر بأفريقية والمغرب تحت ملك الفرنجة، ويدينون بالنصرانية^(٣).

ذات الصواري:

وقد اهتم المسلمون ببناء الأسطول البحري، مستفيدين من خبرة سكان الإسكندرية، وتمكن الأسطول الإسلامي من إحراز نصر على أسطول الروم في موقعة ذات الصواري في البحر المتوسط على مقربة من الإسكندرية سنة ٣٤ هـ. وقد استولى المسلمون على بعض سفن الروم فأضافوها إلى أسطولهم^(٤).

الجيش ونظام القتال:

لم يظهر الجيش النظامي في عصر الخلافة الراشدة بالصفة التي نجدها في الدولة العباسية، بل كانت الأمة كلها مقاتلة حين تدعى إلى الجهاد، حيث

(١) هو جرجوريوس القائد من الإفرنج الذين غلبوا على إفريقية بعد انحسار نفوذ الروم، وقد اتخذ من سبيطة عاصمة له لمناعتها بدلاً من قرطاجنة، وكان في البدء نائباً عن بيزنطة، ثم استقل عنها (حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٩٦ هامش رقم ٢، والزواوي: تأريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٤، والسلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١: ٧٥).

(٢) الطبري: تأريخ ٤: ٢٥٣ - ٢٥٦، والبلاذري: فتوح ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) سعد زغلول: تأريخ المغرب ١ - ١٢٦.

(٤) الطبري: تأريخ ٤: ٢٨٨، ٢٩٠ - ٢٩٢.

كان كل قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية^(١). لذلك لم تكن التدريبات اليومية تحت إشراف الدولة، وإنما اعتمدت جيوش الفتح على المتطوعين، الذين كانوا يتدربون بأنفسهم على السباحة والرماية والمبارزة والفروسية بصورة مستمرة، استعداداً للجهاد مما وفّر للدولة أعداداً كبيرة من الرجال القادرين على القتال العارفين بأساليبه وفنونه في ذلك العصر.

«لقد أرسى الرسول القائد ﷺ القواعد العسكرية الإسلامية، ووضع تعاليمها النظرية والتطبيقية، وحذا الخلفاء الراشدون حذوه في تطبيق هذه التعاليم، ولذلك استطاعوا تحقيق أكبر الانتصارات على أقوى جيوش فارس والروم، وفتحوا البلدان في وقت قياسي قصير»^(٢).

وكانت القبيلة هي الوحدة العسكرية في ميدان القتال، كما كانت أساساً للتنظيم الاجتماعي والإداري في الأمصار^(٣). وبرغم أن الروابط القبلية ظلت فاعلة في علاقات القبائل ببعضها وبالدولة، وكانت الدولة تحسب لها حساباً، إلا أن تغلغل الإسلام في المجتمع وقوة العقيدة الإسلامية في النفوس أدى إلى إضعاف الروح القبلية شيئاً فشيئاً، فظهرت معايير جديدة وروابط جديدة على أساس المساواة والتقوى بصرف النظر عن الأصل، كما أن ظهور الفرق العديدة التي كانت تجمع أناساً من أوساط مختلفة وقبائل متباينة ساعد على إيجاد روابط فكرية وسياسية ودينية على حساب الروابط القبلية القديمة^(٤).

(١) فاروق عمر فوزي: النظم العسكرية، نشأة الجيش النظامي في الإسلام ٢: ٢٢٩. (وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي ١٤٠٥ هـ).

(٢) المرجع السابق ٢: ٢٣٥.

(٣) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٣٨ - ٤٠.

(٤) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ١٣٧، وفاروق عمر فوزي: النظم العسكرية ٢: ٢٣٩.

وكذلك فإن استقرار - العرب في الأمصار أدى إلى امتزاج القبائل وتداخلها اجتماعياً بالزواج واقتصادياً بوحدة مصالح مصر، وكانت الروابط الاجتماعية والاقتصادية الجديدة تقوى على مر الزمن على حساب الروابط القبلية.

وكان الجيش عربياً في البدء، ثم استسلمت أعداد من قوات الفرس والروم، ودخلت في الإسلام، ورغبت في الالتحاق بالقوات الإسلامية.

وقد عاملتهم الدولة الإسلامية بمرونة، فألحقتهم بقواتها مع احتفاظهم باستقلال وحداتهم وفرقهم، وسمح لهم - إذا رغبوا - بالتحالف والارتباط بالقبائل العربية، كما أدخلوا ديوان العطاء، ومن هؤلاء «الحمراء» من الروم، و«الأبناء» من أهل صنعاء، و«الديلمة» و«القيقانية» و«الأساورة» من الفرس^(١).

وقد عرف الجيش الإسلامي عدة رتب عسكرية، تتمثل في أمير الجيش ونائبه وأمراء الكراديس وأمراء التعبئة والنقباء والعرفاء^(٢)، وكان الجيش يرفع لواءً أبيض ورايةً سوداء^(٣) كما كان عليه الأمر في عهد النبوة^(٤). وكان المقاتلون فرساناً ومشاة، وكانت الدولة حريصة على تربية الخيل لأغراض الجهاد، كما كانت تحثُّ الناس على تربيتها، وتقيم لها السباقات، وتحدد لها الحمى. ويعطى الفارس من الغنيمة سهماً وللراجل سهم واحد^(٥).

وكانت التعبئة العربية تعتمد على نظام الصفوف ونظام الكراديس ونظام الخميس، فكان الجيش يقسم إلى خمسة أقسام: الميمنة، والميسرة - ويطلق عليهما

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٦٦ - ٣٧٩، وابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٢٩، وصالح العلي: التنظيمات ٥٩، وفاروق عمر: النظم العسكرية ٢: ٢٤٢.

(٢) محمد فرج: المدرسة العسكرية ٤٢٥، وعبد العزيز السلومي: ديوان الجند ٢٩٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٣٢ - ١٣٣، والطبري: تأريخ ٤: ٥١٤.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٦: ١٢٦. وتسمى الراية «العقاب».

(٥) عبد العزيز السلومي: ديوان الجند ٣٤٣ - ٣٤٦.

الجناحان -، والقلب، والساقة، والمؤخرة. وكل قسم يضم عدة كراديس، ويتألف كل كردوس من ألف مقاتل، وله قائده وحاشيته وراياته. وبين كل كردوس وآخر فسحة من الأرض مناسبة تسمح لها بحرية الحركة والقتال. وكانت الدولة تمون الجيش بما يلزمه من الطعام والسلاح والخيول والجمال^(١).



(١) عبدالعزيز السلومي: ديوان الجند ٣٦٢ - ٣٨٠.